النشاط الثقافي في الغرب

الجزائـــر

مولـود فـرعـون

*

في ١٥ آذار وقع الكاتب الجزائري المعروف مولود فرعون صريعا تحت رصاص شرذمة من « منظمة الجيش السري » في مدينة الجزائر ، فاهتز لمصرعه رجال الفكر في فرنسا وفي العالم ، ونقلت الصحف هـذا النبأ بحروف عريضة وبكثير من التفاصيل. وقع ضحية الواجب والضمير والانسانية ، وهو الذي كرس نشاطه ، في السنوات الاخيرة للعمل على التأليف بين القلوب في الجزائر الممزقة .

ولد فرعون سنة ١٩١٣ في الجبال القبائلية على مقربة من فـور ـ ناسيونال . كان من عائلة فقيرة جدا ، الا انه اظهر من النجابة والاجتهاد في دروسه ما جعل منه معلما في مدرسة ضيعته ، وبعدها مديرا لمدرسة في فـور ـ ناسيونال .

ظهرت روايته الاولى : « ابن الفقير » سنة ١٩٥١ فلاقت رواجـا قويا في الجزائر . سنة ١٩٥٣ نالت روايته « الارض والدم » الجائـزة الشعبية . اما كتابه الاخير فهو « الدروب التي تصعد » .

وقد كتب جان دانيـال في العدد الاخير من مجلة « بروف » مقالا عن مولود فرعون جاء فيه :

كان التقائي بمولود فرعون ، للمرة الاولى ، في منزله الذي يقـع بالجبال القبائلية ، وفي فـور ـ ناسيونال بالذات . كنت اعرف الكثير عنه . ومن هذا الكثير ان كامو قد فكر بامثاله او به هو دون سواه عندما كتب العبارة التالية : « احس بانني اقرب بما لا يحد الى معلم مدرسة قبائلي مني الى مثقف باريسي » . ومن هذا الكثير ايضا انه نال اعجاب الادباء الفرنسيين (وبينهم لوى غيو وجان كايرول وفرنسيس بونج ...) الذين توجهوا الى الجزائر للاشتراك بمؤتمر يضم الادباء الجزائريين . كان غيو اشدهم حماسا : لقد عرف بصاحب « ابن الفقير » اخا له في مهنة الكتابة .

هذا من جهة ، اما من جهة ثانية فكنت اعرف ، استنادا الى روبلس الذي اعانه كثيرا ، ان طفولته كانت محفوفة بالمصاعب وانه كان ذا موهبة ادبية نادرة . كان يعيد مرتين وثلاثا واربع مرات كتابة ما يشير عليـه الناشر او روبلس نفسه باعادة كتابته او تحويره. وعندما كان يترامى الى مسامعه انه قد لاقى نجاحا كان يعزو ذلك الى تسامح القارىء ، معتقدا ان مجرد كونه قد توصل الى الكتابة انما هو أمر بعيد الخطورة ، فاذا ما نالت كتاباته الاستحسان فذلك اكثر مما يستحق !

لقد تزهنا معا في جبله وعرفت ان اعرفه . كان من هذه الفئة التي يحبها كامو : سكوتا ، ناعما ، بعيد النفاذ ، قويا ، على تلاؤم مع الحياة.. وكانت مرونته تزداد يوما فيوما فيتأصل ويثبت وجـوده . حتى ان احساسه من الداخل بمأساة الجزائر ، مأساته هو ، كان يتوقد ويلتهب ويتخذ شكلا معينا مقصورا عليه دون سواه . فلم يكن يعتقد مثلا بـأن عليه ان يقوم بالجهاد المسلح ، مما قاد مجاهدي جيش التحرير الوطني الى الاقرار له بذلك . عندما انخرط في ما دعي بالمراكز الاجتماعية التي انما هي رمز حي للتعاون والتضامن بين الاوروبيين والوطنيين .

كانت المراكز الاجتماعية هذه جزرا من الاخاء والثقافـة في خضم تتلاطم فيه امواج الحقد والفظاعات . كانت مثالا يشار اليه بالبنان عندما لم يبق ثمة من أمل في تعايش سلمي بين عنصرين يتحاربان . وطـوال اعوام طويلة كان يشعر الفرنسيون والعرب الذين تعارفوا داخل هـذه المراكز بانهم هم الذين سيبنون المستقبل الحقيقي ويؤلفون طبقة من ارستوقراطية التفاهم . انها مراكز الانفتاح والتعاطف ، ومن انتمى اليها اتسم بسمة النبل الخلقي والفكري . في أجوائها عاش مولـود فرعـون فتفتح وازداد انسنة اكثر منه بين اصحابه الباريسيين الذين عرضـوا عليه حمايتهم يوم حسبوه مهددا . الا انه رفض عروضهم بكثير مـن اللطف والدراية . رفض فلافى حتفه !

الاتحاد السوفياتي

مأساة ايفنسكايـا

الحياة الادبية في الاتحاد السوفياتي

*

حصل مؤخرا جدل في موسكو بصدد قصيدة تندد بالنزعة المناهضة للساميين وضعها شاعر شاب يدعى اوجين افتوشنكو ، وهو مجيد ولامع معا . فبعد ان ناله لوم النقاد الرسميين هتف له جمهور موسكو ، غب ذلك بايام ، في مناسبة يوم الشعر ، وحمله مظفرا الى منصة الشرف حيث لم يعين له مقعد .

انه دليل بين دلائل اخرى على تحرر الحياة الفكرية في الاتحـاد السوفياتي ، ومن ابرزها ايضا افلام تشوكراي واراء اهرنبورغ الجريئة في دور الكاتب السوفياتي ، ونشر قصائد جديدة لبوريس باسترنـاك، ودلائل غيرها . ومع ذلك فالتدابير التعسفية والتحظير لا تزال ترزح على الحياة الادبية في الاتحاد السوفياتي .

ففي السابع من شهر ديسمبرعام ١٩٦٠ قضت احدى المحاكم فـي موسكو على السيدة اولغا ايفنسكايا معاونة باسترناك الحميمة ووكيلته الادبية بالسجن سبعة اعوام ، كما قضت على ابنتها ايرينا بالسجن ثلاثة اعوام بتهمة « تهريب نقدي » . ثم نقلتا الى سيبريـا ، وانقطعـت اخبارهما .

توفي باسترناك في الثلاثين من شهر مايو عام ١٩٦٠ . وقد ابدى عن مخاوفه في رسائله الاخيرة ، بصدد المصير الـذي قـد تدخـره السلطات السوفياتية لمعاونته الحميمة. قال في احدى هذه الرسائل «ان اولغا واولادها هم بمثابة رهائن ضدي » .

كانت مخاوف باسترناك مبنية على حدث سابق رهيب . فمن عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٣ نفيت السيدة اولغا ايفنسكايا الى سيبيريا بعـد ان عذبت في احد سجون موسكو ، وحاول معذبوها ان يجبروها عـلى التصريح بان باسترناك هو عميل الاستعمار الغربي . لكنها لم تذعن لهم . وثمة محن اخرى المت بهذه المرأة الشجاعة ، الموهوبة ، المرهفـة الحس ـ انتحر زوجها الاول شنقا لئلا يقع في قبضة الشرطة السياسية ، وقتل زوجها الثاني في الحرب ، وحجر على امها في احد مخيمات الاعتقال . ويقال ان اولغا ايفنسكايا قد اوحت الى واضع « الدكتـور جيفاكـو » بشخص لارا الرائع .

هذا ، وقد تحققت وساوس باسترناك . فبعـد موته بثلاثـة اشهر

اعتقلت السيدة ايفنسكايا ثم ابنتها . فحوكمتا بسرعة في دسمبر من عام ١٩٦٠ ، ولم يبلغ هذا النبأ الغرب الا في مطلع ١٩٦١ . فهب العديد من ادباء العالم واندية بطلبون العفو لهما ، ويتسقطون الحقائق وتفاصيل المحاكمة ولكن بدون جدوى . بل اجاب امين السر في اتحاد الادباء السوفياتيين ، وهو السيد الكسي سيركوف مؤكدا قوله ـ « لا صلة لهذه القضية بالاديب باسترناك . انها قضية تهريب نقدي . » ثم نعت السيدة ايفنسكايا وابنتها بنعوت شائنة دون ان يعالج صلب الموضوع .

ان تكن الاتهامات التي نزلت بالسيدة ايفنسكايا على شيء من الصحة ، فليس ثمة ما يؤخذ على ابنتها ايرينا التي يكتنفها الصمت في التصريحات الرسمية . وان الشاعر الانكليزي روبير كونكست ، الذي اصدر كتابا عن باسترناك ، قد قال في تصريح له حول هذه القضية : « ليس ما يحملنا ، حتى الان ، على تصديق ما طلع علينا به السوفياتيون في هذا المجال ، ما لم يتوفر لنا جواب السيدة ايفنسكايا نفسها » . في الواقع لم يرد شيء في البرامج الاذعية الموجهة الى الخارج ، ولا في مراسلات الصحفيين في موسكو من دفاع السيدة ايفنسكايا وابنتها عن نفسهما امام القضاة .

وقد نشرت المجلة الايطالية « تمبو بريزنتي » وثائق كثيرة حول هذه القضية منها رسالة وجهها السيد سرجيو انجلو الى السيد سوركوف ، وهو بصفته وكيل الناشر فالتريناللي في علاقاته مع باسترناك وممثليه ، اجدر من يعود اليه البحث عن الحقيقة في قضية السيدة ايفنسكايا .

يعتمد السيد انجلو الحجج السوفياتية الذاهبة الى ان السيدة ايفنسكايا قد استقدمت من الخارج ، خفية عن الكاتب ، قدرا من المال يعود اليه ، فيقول « كل هذا لا صحة له ، وقد اوضحته في شهر مايو الاخير اذ نشرت في عدة صحف كبرى عددا من رسائل كتبها باسترناك بنفسه ، يصرح فيها هذا الاديب ، الذي اضطهدتموه طوال حياته وتتظاهرون بالعطف عليه بعد مماته ، بانه رقيق الحال ، ويطلب ان يسلم ليده قسم من ريع كتابه « الدكتور جيفاكو » وقد كان ذلك في نظره الوسيلة الوحيدة الممكنة » .

ثم ان السيد انجلو ، في رسالته المذكورة ، يدحض الحجج السوفياتية بصدد الحكم على السيدة ايفنسكايا وابنتها ، وينتهي الى القول « لم تكف وفاة باسترناك لشفاء حقدكم الذي تنزلونه الان مع كثير من السباب والتحامل بامرأتين عزلاوين يبرح بهما الداء الى جانب ذلك » .

وما اكثر الذين سيقاربون ، بعد اطلاعهم على مصير معاونة باسترناك الحميمة ، بينها وبين لارا في كتاب « الدكتور جيفاكو » . وقد روى باسترناك نهايتها بهذه العبارات « ذات يوم ، غادرت لارا فيودوروفنا المنزل ولم ترجع . لعلها اعتقلت في الشارع . او اضطرت الى ان تموت او تتوارى في مكان مجهول ، منسية تحت رقم مغفل من لائحة مفقودة ، وذلك في احد مخيمات الاعتقال الوفيرة الواقعة في الشمال » .

*

حياة جديدة للمخطوطات العربية القديمة

كتب ب. غريازنيفيتش المعاون العلمي في الفرع الليننغرادي لمعهد شعوب اسيا لدى اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي المقال التالي عن المخطوطات العربية القديمة :

لو وضع ، في احد الايام ، كتاب حول تاريخ جمع ودراسة المخطوطات العربية والمنشورات المطبوعة في روسيا ، فستنفتح امام القراء قصة مدهشة غنية بالعبر عن الكتب والرجال الذين شقوا الطريق للتقارب ووحدة الافكار بين الشعبين .

ونحن مدينون بالضبط لهذه الخطوطات وهذه الاثار المرموقة للادب العربي وللمستشرقين الروس الذين درسوها ، في التعرف الى السمات الروحية والواقعية للشرق العربي ، التي هي نسيج وحدها .

في العقد الرابع من القرن الماضي ، كان الجمهور الروسي يتمتع بقراءة « القصص الشرقية » والكتاب عن رحلة المستعرب ا. سينكوفسكي الى سوريا ، وكانت تنشر في الجرائد والمجلات الروسية المقالات الشعبية للعلماء المستعربين حول الادب العربي . وقد اعطت جهودهم ثمارها . وبعد ان كانت المخطوطة العربية لا تثير سوى اهتمام زوار المتاحف ، ولا تسبب سوى الدهشة ، اصبحت في نظر الانسان الروسي مصدرا للقصص الحية عن احدى حضارات العالم القديمة .

هذا التغيير في الموقف ازاء الاثار العربية القيمة كان له في حينه نتيجة ايجابية اخرى . لقد اثار الاهتمام بجمع المخطوطات الشرقية الذي اكتسب طابعا علميا منذ تأسيس المتحف الاسيوي في عام ١٨١٨ ، في بطرسبرج (لينينغراد حاليا). وساعد ذلك على ان يحفظ للعلم كثير من اعمال الادب العربي التي لا تقدر بثمن .

وبفضل مواهب الجامعين الهواة ، والمشتريات التي اجريت في بلدان الشرق ، وفي اسيا الوسطى والقرم والقفقاس ، انشئت في بطرسبرج احدى اكبر المجموعات في اوروبا للمخطوطات الشرقية ، والتي استخدمت كأساس لانشاء الاستشراق العلمي الروسي . ان مخطوطات معهد شعوب اسيا التابع لاكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي تضم وحدها ، في الوقت الحاضر ، قرابة ٧٠ الف مخطوطة ، وكتبا مطبوعة بالكليشيات الخشبية ، ومنشورات بالطباعة الحجرية ، وكتبا نادرة يعود تاريخ طباعتها الى اوائل عهد الطباعة وهي في ٤٥ لغة من لغات شعوب الشرق . ومن بين الـ ١٢ الف مجلد في القسم الاسلامي توجد قرابة ٥ الاف مخطوطة عربية . ومن بينها قصائد جرير ، الشاعر العربي الشهير من القرن الثامن ، ومخطوطة البيروني الشهيرة النادرة لكتاب الاثار الباقية من القرون الخالية ، والقائمة الوحيدة لكتابات بخط يد اسامة بن منقذ وهي تضم اسماء مؤلفاته ونسخة « مقامات الحريري » البديعة ، المزدانة بمنمنمات القرن الثالث عشر المعروفة في العالم بأسره والمخطوطة الفريدة « الديوان » للشاعر الاندلسي ابن قزمان ، وبوميات رحلات احمد بن ماجد ، مرشد فاسكودي غاما ، الخ .

وبالاضافة الى هذه المخطوطات ، تحفظ في هذه المجموعة قرابة ٦ الاف طبعة شرقية للكتب العربية (بالطباعة العادية والحجرية) في مختلف فروع العلم . وبينها مطبوعة من اواخر القرن السادس عشر ، منذ اوائل عهد الطباعة ، على مطبعة مديتشي في روما ، واخرى طبعت في مطبعة حلب في القرن السابع عشر ، وهناك المجموعات الفنية لمطبوعات فاس على مطابع حجرية ، وكذلك جميع الكتب العربية المطبوعة في روسيا منذ بدء الطباعة بالعربية ، اي منذ عام ١٩٥٧ .

ومجموعات المخطوطات العربية في المكتبتين الاخريين في لينينغراد، المكتبة العامة للدولة ومكتبة الكلية الشرقية في جامعة لينينغراد ، هي اقل غنى من حيث العدد ، لكنها ذات قيمة كبرى من حيث انتقاؤها .

وبالاجمال ، يوجد في مكتبات لينينغراد ، اكثر من ٧ الاف مخطوطة عربية . ويحق لعدد كبير من بينها ان يسمى ، المخطوطات النادرة . ذلك لانها ظلت طوال مئات السنين تمر من يد الى يد اخرى ، يد كانت احيانا مفعمة بالعناية ، واخرى غير مبالية .

هذه المخطوطات التي ناهت سنين طوالا ، والشاهدة على العبقرية البشرية الخلاقة وعلى القسوة ، قد وجدت اصدقاءها في روسيا النائية على ضفاف النيفا . واستطاعت مع اصدقائها الجدد ان تتكلم لغة حية ، دون ان تخشى عدم التفهم . وهي هنا ، في لينينغراد (بطرسبرج وبتروغراد سابقا) بدأت اخيرا الحياة التي كانت مؤهلة لها وهي خدمة الذكاء البشري ، والتقارب الروحي والفكري بين الشعوب .

لقد عمت عدة اجيال من العلماء المستشرقين الروس اكثر من مئة عام في وصف ودراسة هذه المخطوطات الثمينة . وعملهم الكبير ، رغم انه لم يكن ملحوظا في غالب الاحيان ، كان نكرانا للذات يستحق لقب المآثرة العلمية ، ويضاف الى امجد صفحات تاريخ الاستشراق .

بدأ الوصف المنهجي للمخطوطات العربية في المتحف الاسيوي حوالي عام ١٨٣٠ . وكان مؤسسه ومحافظه الاكاديمي خ. فرين . وواصل عمله الاكاديمي ف. روزين ، الذي نشر في عام ١٨٨١ فهرسا يضم اوصافا لثلاثمئة قائمة للقسم الرئيسي للمخطوطات العربية في المتحف الاسيوي . وقد نشر هو نفسه في عام ١٨٧٧ جدولا بالمخطوطات العربية في معهد اللغات الشرقية لدى وزارة الخارجية . وفي عام ١٩٥٢ نشر الاكاديمي دورن وصف المخطوطات الشرقية وبينها ٢٤٧ مخطوطة عربية، كانت محفوظة حينئذ في المكتبة العامة . وفي السنوات التالية ، صدرت سلسلة طويلة من الاعمال لاكبر المستشرقين الروس ، مكرسة لوصف ودراسة المخطوطات الحديثة ، او المكتشفة .

وبدات مرحلة جديدة في دراسة المخطوطات العربية بعد الثورة الاشتراكية الكبرى . وعلى اساس المتحف الاسيوي القديم ، الذي التفت حوله فقط فئة صغيرة من العلماء المستشرقين ، انشيء في عام ١٩٣٠ معهد خاص للابحاث العلمية الاستشراقية ، جرى تحويله في التالي الى معهد لشعوب اسيا لدى اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي . وقد اعيد بصورة جذرية تنظيم شروط حفظ المخطوطات . وطريقة معالجة دراسة روائع الكتابة العربية هذه قد غيرت ايضا . ان نضال التحرر الوطني لشعوب الشرق الذي وجد في قلوب المواطنين السوفياتيين صدى حارا ، ايقظ اهتماما لم يشهد له مثيل ابدا حتى ذلك الحين ، نحو تاريخ وثقافة وحياة الشعوب الشرقية . والمستعربون السوفيات ، قد بذلوا جنبا الى جنب مع دراسة وطبع النصوص ، نشاطا كبيرا لاجل ترجمة ونشر المعارف العلمية حول ماضي وحاضر الشعب العربي . ولم تنس المخطوطات في حقل هذا النشاط . وقد بدأ تحت اشراف ف. بيليايف الوصف المنهجي لكل مجموعة مخطوطات لينفراد . وقد انجز حتى الان الوصف الموجز لمحتويات القسم الجديد للمخطوطات العربية في المكتبة العامة التابعة للدولة . وقد نشر عرض لمحتويات القسم العربي في المكتبة العامة لدى الكلية الشرقية بالجامعة . وفي الوقت الحاضر ، يعمل معاونو المكتب العربي لدى معهد شعوب اسيا باكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ، يعملون في تاليف فهرست للمخطوطات العربية لهذا المعهد ذاته . وحتى الان ، ظهر كتابان يضمان اعمال النشر الفني العربي والادب الجغرافي . والكتابان التاليان هما على اهبة الطباعة . وسيضمان وصف مخطوطات قسم الشعر العربي ، وكذلك الادب التاريخي وكذلك المؤلفات التاريخية والسير. وبعد ثلاث سنوات سينتهي نشر كتاب الفهرست ، وسيتمكن العلماء من التعرف على نطاق اوسع على كنوز مجموعة من اكبر مجموعات المخطوطات في الاتحاد السوفياتي .

ان نشاط افضل ممثلي الاستشراق الروسي لما قبل الثورة ، والابحاث والعدد الكبير من ترجمات مخطوطات الادب العربي ، وعمل التعميم الواسع الذي قام به المستعربون السوفيات قد اسهم الى حد كبير في التفهم الافضل والاعمق للرأي العام عندنا للتطور التاريخي الذي حدث في بلدان الشرق العربي التي خلعت النير الاستعماري . وحين يتناول احد السوفياتيين ، في ايامنا ، كتابا مترجما عن العربية ، او ينظر واجهات المعارض ، الى المخطوطات ذات القيمة الكبرى المكتوبة بخطوط عربية جميلة معشقة الحروف ، لا تعود الى ذاكرته فقط شخصيات الحكايات العربية المحبوبة منذ الطفولة . فقارئنا السوفياتي يبحث ويجد في مخطوطات الادب العربي عن حكايات حول المآثر الثقافية للشعب العربي وتاريخه الفني ، وماضيه المؤدي الى الحاضر . ويجعل هذا مفهوما العناية والانتباه المحاطة بهما في الاتحاد السوفياتي اعمال العلماء الذين يدرسون وينشرون على الشعب كنوز مجموعات المخطوطات العربية المحفوظة بعناية في الاتحاد السوفياتي .

صدر حديثا عن :

دار الطليعة للطباعة والنشر

*

السلطان

تاليف برتر انهراسل ـ ترجمة خيري حماد
اعمق دراسة عن فلسفة الحكم والسيطرة والنفوذ

روابي افريقيا الخضراء

رائعة همنغواي الوصفية ـ ترجمة يوسف الخطيب
القصة التي تجعلك تعيش أروع الحوادث مع همنغواي في اطار طبيعي كله سحر وروعه ومفاجآت .

الجذور التاريخية للشعوبية

تاليف الدكتور عبد العزيز الدوري
تحليل واقعي لعناصر الشعوبيه السياسية والآثنيه والدينية والادبيه .

ثورة افريقيا

تاليف مادهو بانيكار الاخصائي العالمي الهندي في الشؤون الافريقية ـ ترجمة خيري حماد
دراسة شاملة للدول الافريقية الناهضه تحوي أدق التفاصيل عن الاحزاب والزعماء الافريقية .

الخبز مع الكرامة

تاليف الدكتور يوسف عبدالله صائغ
تحليل علمي للمضمون الاقتصادي الاجتماعي للمفهوم القومي العربي

الشيوعية

تاليف هارولد لاسكي ـ ترجمة خيري حماد
الكتاب الوحيد المحلل للشيوعية من وجهة نظر الاشتراكيين الديمقراطيين